الفصل الثالث

دور الوالدين

أهمية السنوات الأولى من حياة الطفل

«ولعلك تدرك الآن يا أفلاطون أن المدار فى أى عمل من الأعمال على بدايته، وخاصة إذا ما كان الشىء مرناً غض الإهاب. لأنه فى هذه الفترة من حياته أكثر ما يكون قابلية للتشكل وأطوع ما يكون لصبه فى القالب الذى يرغب المرء أن يسويه على شاكلته. ألست معى فى ذلك؟ هكذا كتب أفلاطون على لسان أستاذه سقراط منذ نيف وألفى عام. ولو وجه الينا هذا السؤال اليوم لأجاب معظمنا «حقاً، أن الأمر كذلك».

إن للوالدين دوراً فى التربية الجنسية لا يستطيع المعلم أو أى شخص آخر أن يحل محلهما فى أدائه. نعم، قد يستطيع هؤلاء أن يزودوا الأطفال بالمعلومات الصحيحة، ولكن لا يتأتى لفرد مهما كان قدره أن يكون له تأثير الوالدين على نظرة الطفل العامة إلى الحياة. ومما لا شك فيه أن للسنوات الأولى التى يقضيها الطفل فى المنزل أهمية فائقة فى نموه الانفعالى، ذلك لأن نجاحه وسعادته فى مستقبل حياته، إنما يتوقفان إلى حد كبير على ما عساه يكتسب من خبرات ويتكون عنده من اتجاهات فى السنوات الخمس الأولى من حياته. ولهذا فإن من الأهمية بمكان أن يعد الأب والأم للأمر عدته وأن يتفقا من قبل على الطريقة التى سوف يتبعانها فى تنشئة أطفالهما.

وليعلم كل والد أن حياة الوليد تنتقل بعد ولادته من الركود إلى النشاط الجم. فبعد أن يقضى فى بطن أمه تسعة أشهر آمناً مطمئناً، إذ به يدخل عالماً لم يألفه، كل شىء فيه جديد عليه. عند ذلك يتحتم عليه أن يكيف نفسه بالتدريج لمجتمع معقد. ويتم ذلك فى أول الأمر عن طريق اكتساب المهارات الحركية البسيطة والتحكم فى أعضاء الجسم. ويلاحظ أن تكيفات الطفل الأولى إنما تكون مع المجتمع كما يبدو فى صورته المصغرة وهى الأسرة. فكأن الروابط العائلية تهيئ المجال لمحاولات الطفل الأولية نحو التوافق الاجتماعى. وفى أثناء قيام الطفل بهذه المحاولات مطمئناً إلى جو الثقة الذى يشيع فى المنزل قد يقع فى بعض الأخطاء التى لا ينبغى أن نخشى عليه خشية كبيرة من نتائجها، ذلك لأنه يتعلم منها دروساً مفيدة جليلة المنفعة.

وظائف الجسم الأولية

ويذهب بعضهم إلى أن التربية الجنسية ينبغى أن تبدأ فى ثنايا الإجابة عن أول سؤال يوجهه الطفل فى هذا الموضوع. غير أن هذا الرأى فى الواقع يعنى إرجاء المسألة أكثر مما

ينبغى، إذ يجب أن تبدأ التربيـة الجنسية مـع أول عـهد الطفـل بالحيـاة. فـالمتفق عليـه أن التربية الجنسية تتضمن تشجيع الاستقرار الانفعالى، وأول مران على هذا هو توفير التغذية من الثدى على منوال يؤدى إلى الطمأنينة والرضى. وليس هنا المجال المناسب لتفصيل ذلـك، لكـن يكفى فى هذا الصدد أن نذكر أن الرضاعة هى حاجة الطفل الملحة الكـبرى فـى الشـهور الأولى من عمره، ولذا فهى تشغل المكان الأول من اهتمامه. ويتضح من ذلك أن رضى الطفل فـى هـذه الناحية يلعب دوراً هاماً فى ضمان استقراره من الناحية الانفعالية.

والناحية الهامة الأخرى لنشاط الوليد هى تخلصه من المواد الزائدة عن حاجة جسمه، وهـو فى أغلب الأحيان يشتق لذة فائقة من تفريغ أمعائه ومثانته عدة مرات كل يوم. ويعتقد الجميع وبخاصة الوالدين أن هذه العمليات فى حد ذاتها عمليات «قذرة أو كريهة» وهم فى ذلـك جـد مخطئين. كما أنهم عندما يحاولون إرغام الطفـل علـى ضبـط هـذه العمليـات – ومـن المحتمـل نجاحهم فى ذلك فينقصون عدد اللفائف التى يتحتم غسلها إلى الحد الأدنـى – فإنـهم يصلـون إلى تلك النتيجة فى الغالب بعد أن يدفعوا الثمن غالياً لأنهم يكرهون الطفل على تعـود النظافـة بطريقة تؤدى إما إلى نفوره من عمليات التبول والتبرز إلى اهتمامه بها اهتماماً زائداً عـن الحـد. وبسبب تجاور أعضاء الإخراج وأعضاء التناسل فى البـدن واتصـال الأعصـاب فـإن الاتجاهـات التى تتكون نحـو الأعضـاء الأولى قـد تتحـول نحـو الثانيـة أيضـاً، فـالحق إن الأطفـال الصغـار يعتبرون أعضاء التناسل ذات وظيفة إخراجية صرفة. ولهذا فأى شعور بالامتعاض نحـو عمليـة الإخراج أو الإفرازات نفسها قد يكون له أثر سـيئ فـى فكرتـه المستقبلة عـن الجنـس. وهكـذا يلعب الوالدان دوراً هاماً فى تربية أطفالهم من الناحية الجنسية عندما يتحاشون انبعـاث تلـك المشاعر بل يغرسون بالأحرى فى نفوسهم أن عملية الإخراج، مثل الأكل، عملية طبيعيـة ليـس فيها ما يشين وذلك بدلاً من أن يشجعوا ما يوحى إلى أطفالهم بعكس تلك الفكرة.

العادات السرية عند الأطفال

واهتمام الأطفال بأعضائهم التناسلية أمر عادى تماماً. وحاسـة البصر عندهـم لم تنـم النمـو الكافى بعد، ولذا فهم يعتمدون إلى حد كبير فى تعرفـهم علـى الحقـائق المتصلـة بالعـالم الـذى يحيط بهم على حاسة اللمس، لذا نجدهم يتحسسـون الأذن والعـين والفـم ثـم يتفـق عرضـاً أن يمسوا أعضاءهم التناسلية. ولما كانت هذه الأعضـاء غنيـة بنـهايات أعصـاب الحـس فـإن تلـك اللمسة توفر لهم لذة كبيرة، وهكذا يتخذون اللعب بأعضاء التناسل وسيلة للحصول على اللـذة. وهذا العبث الذى يدعى بالعادات السرية عند الأطفال أمر غـير ضـار فـى العـادة ولا يصح أن نتخذه ذريعة للعقاب أو التأنيب. ولسوء الحظ يختلط الأمر على كثير من الآبـاء فيظنـون خطـأ أن هذا الطريق البرئ للكشف ليس سوى بداية لطريق الرذيلة الوعر. ولـذا فـهم ينـهون الطفـل

ويأمرونه ألا يكون «قبيحاً أو قليل الأدب!» أو يظهرون امتعاضهم بكيفية ما. فماذا يفهم الطفل المسكين من ذلك؟ أيفهم أن فى استطاعته أن يشد أنفه أو يلعب بأصابع قدمه فى أمان دون أن يخشى عقاباً حتى إذا فعل نفس الأمر فى موضع آخر بين الطرفين السابقين فإنه يجلب على نفسه سخط والديه؟! إن هذا التصرف من جانب الوالدين خليق بأن يولد فى نفس الطفل منذ الأيام الأولى الشعور بأن هناك منعزلاً عن بقية الحياة، شيئاً قذراً فى جوهره يتعلق بالأعضاء التناسلية ثم يتحول هذا الشعور فيما بعد إلى الوظائف الجنسية نفسها. والمؤكد أن امتعاض الوالدين من هذا العمل لن ينجم عنه سوى أحد ضررين: إما تثبيت الأمر بحيث يصبح عادة أو القمع الذى ينتهى بتكوين عقد نفسية ذات آثار سيئة.

نحن لا ننكر أن إغراق الطفل فى العبث بأعضائه التناسلية أمر غير مرغوب فيه إذ قد يؤدى به ذلك إلى التهيج الجنسى المبكر، ولكن ليس من المرغوب فيه أيضاً أن ننهر الطفل كثيراً فنخلق عنده شعور بالعار من هذه الأمور ولما يزل صغيراً. وأول ما يجب على الوالدين فى هذا السبيل، أن يزيلا المهيجات المادية العارضة التى قد تدفع الطفل إلى توجيه اهتمام زائد عن الحد إلى المناطق التناسلية، كما ينبغى تنظيف هذه المناطق كلما اتسخت مع ملاحظة إزاحة القلفة قليلاً إذا كان الطفل ذكراً. وإذا حدث أن أبدى الطفل ما يشعرنا بتبرمه من هذا العمل، أو بدا منه ما يدل على أنه يركز انتباهاً أكثر من اللازم نحو أعضائه التناسلية فى أثناء تنظيفها، فمن الحكمة أن نوقف العمل قليلاً. وقد يشير الطب فى بعض الأحيان بختان البنين. وفى كثير من الأحيان لا يكون ثمة مثير خارجى واضح فكل ما يمكن عمله فى هذه الحالة أن نهيئ للطفل عملاً آخر يستحوذ على اهتمامه. ومهما كان الأمر فلا يصح أن نعسف بالطفل هذا السبب على الإطلاق.

وثمة نقطة هامة وهى أن ذلك العبث، مثله كمثل مص الأصابع، وسيلة يلجأ إليها الطفل للحصول على الإشباع. ويشيع حدوثه بين الأطفال إذا لم يكن الطفل راضياً عن حياته تمام الرضى. ولذا ففى نفس الوقت الذى نلجأ فيه إلى التدابير المشار إليها آنفاً بعضها أو كلها، يتحتم علينا أن نبحث عن علاج أعمق يتناول اللب دون القشور ولا يقتصر فى بحث العلة على مظاهرها، فنتساءل عما إذا كان هناك نقص يؤدى إلى اضطراب فى حياة الطفل الانفعالية؟ فلربما كان يفتقد فى والديه ما يكفيه من الحب والعطف؟ وربما كان لا يشعر بالأمن الكافى فى حياته، كما يحتمل أنه صادف حوادث أدت إلى عدم استقراره. فليست العادات السرية أمراً يهمنا فى حد ذاته، لأن معظم الأطفال يقلعون عنها بعد وقت ما، كما يقلعون عن مص الإبهام، ولكن المهم حقاً هى الحاجة الانفعالية التى قد تكون تلك العادات نتيجة لها، وهذه هى التى ينبغى أن نكشف عنها وأن نعمل على إشباعها.

العـــرى

ونستطيع أن نخلق عند الأطفال منذ باكورة حياتهم اتجاهاً صحيحاً نحو الجنس بوسيلتين أخرتين. تتعلق الوسيلة الأولى بموضوع العرى؛ فقد تواضع المجتمع على منع العرى باعتباره من المحظورات المتعلقة بالجنس، فإذا حدث وتعود الطفل منذ البداية ألا ينظر إلى العرى على أنه ظاهرة مستقبحة، فمن المعقول أن ذلك يساعده كثيراً على تكوين الاتجاه السليم نحو الجنس. وهذا يحتم على القائمين بأمر الطفل سواء أكانوا بالمنزل أو المدرسة أو أى مكان آخر أن يتجنبوا دائماً كل ما يوحى للطفل بأن العرى أمر يستحق اللوم.

فلا يجوز مثلاً أن يحال بين الطفل خالد وبين دخول الحمام لأن شقيقته كوثر قد تخفف من ملابسها. وقد تهدى الحكمة بعض الآباء فيسمحون لأطفالهم من كل من الجنسين بالاستحمام معاً. ولهذا التصرف فوائد شتى. منها أن يسمح للأطفال منذ السنوات المبكرة برؤية جسم النوع الآخر فيقضى ذلك على تلهفهم الزائد فيما بعد على رؤيته، ويعفيهم من مرارة الصدمة التى قد يصدمونها عند وقوفهم على ما يتلهفون على معرفته. وليس هناك معنى لإخراج الأطفال الصغار من الحجرة إذا كان والديهم متحررين من ملابسهما، وليس فى وجودهم حينئذ ما يوجب قلق الوالدين لأن الأطفال سوف يتعلمون تدريجاً كلما كبروا كيف يحترمون شئون غيرهم الخاصة كما يتطلبون من غيرهم احترام شئونهم أنفسهم.

وربما يحس كثير من الآباء بصدمة الخجل عندما يظهر أبناؤهم وهم عرايًا أمام ضيوفهم وقد يرتكبون لهذا السلوك الذى «يتنافى فى اعتقادهم – مع الحشمة والحياء». ولكن ينبغى علينا أن ننظر إلى هذا الأمر من الزاوية التى ينظر الطفل إليه منها.

والحقيقة التى لا مراء فيها أن الأطفال غالباً ما يخلعون ملابسهم لا لشىء سوى أنهم يشعرون حينئذ أنهم أكثر حرية، كما أنهم لم يمرنوا بعد على اصطناع الحشمة. وحتى إذا تجردوا من ملابسهم رغبة فى عرض أجسامهم واستعراض أجسام أصدقائهم فليس فى هذا ما يدعو القلق، فقد جبلت نفوسنا جميعاً على حب العرض والاستعراض، ولا يبدو هذا الميل شاذاً إلا عندما يصل إلى حد الإفراط. ورغم هذا فينبغى أن يفهم الأطفال بالتدريج أن التحرر من الملابس أمر غير مسموح به فى المناسبات والأماكن العامة وأن عليهم مراعاة ذلك حتى لا يجلبوا الحرج لأنفسهم أو يبعثوا الضيق والتأفف عند غيرهم.

الحياة الجنسية عند الأطفال

وكما يظهر صغار الأطفال ميلاً إلى اللعب بأعضائهم التناسلية فإنهم يبتهجون عادة من عرض أجسامهم. وغالباً ما تنطوى نواحى نشاطهم الأخرى على مضمون جنسى واضح فمن منا قد اجتاز مرحلة الطفولة ولم يلعب لعبة «العريس والعروسة» مع غيره من صغار الأولاد والبنات؟ ومن منا لم يلعب لعبة «الطبيب أو رجل الإسعاف» التى يغلب فيها أن يرفع كل طفل بدوره ملابس زميله ليكشف عن جسمه ويفحصه بما فيه من الأعضاء التناسلية؟ لسنا نقصد بذلك أن نوحى بأن الاهتمام الجنسى اهتمام شعورى أو بأنه أهم العوامل بالضرورة، ولكنا نؤكد وجوده قطعاً. كما يحدث فى بعض الأحيان أن تتطور اللعبة بحيث تتضح طبيعتها الجنسية حتى ليمكن اعتبارها نوعاً من التجريب الجنسى، ولسوف نرجئ التوسع فى بحث هذا الأمر إلى فصل مقبل.

وقد أشار فرويد منذ سنوات عدة إلى أن الناحية الجنسية تقبل مع الوليد وتلازمه منذ أول قدومه إلى هذا العالم، وأن الإحساسات الجنسية تلازمه فى أثناء فترة الرضاعة والطفولة، حتى ليندر وجود الأطفال الذين لا يظهرون نشاطاً وشعوراً جنسياً قبل دور البلوغ. فعجيب أمر الذين يظهرون الإشفاق والارتباك لما يبدو مبكراً من الأطفال من الناحية الجنسية. والرأى الذى ذهب إليه فرويد صحيح فى صميمه إذ ليس بين القدرات البشرية قدرة تظهر فجأة أو يكتمل نموها دفعة واحدة. وكل قدرة ناضجة مكتملة النمو إنما هى نتيجة فترة طويلة من الممارسة والتجريب على مستوى بسيط. والقدرة الجنسية لا تشذ عن هذه القاعدة. وعلى ذلك فيجمل بنا ألا نلوم الطفل على ما يبدو منه من الأمور الجنسية لأنها ضرورية لإتمام نضجه فى تلك الناحية.

ومن الحكمة ألا نغالى فى تلمس الناحية الجنسية فى نواحى نشاط الأطفال أو نعلق عليها من الأهمية أكثر مما تستحق. ولندرس حالة البنت الصغيرة وهى تجرد ولداً صغيراً من ملابسه. ما الذى حدا بها إلى هذا العمل؟ قد يكن الدافع لها إلى ذلك اهتمام بالناحية الجنسية؛ ولكن ألا يمكننا القول بأن عملها هذا قد لا يعدو أن يكون مجرد تكرار لما فعلته «بدميتها» مرات كثيرة. فهل ثمة ما يدعو إلى العجب إذا استغلق على فهم البنت لماذا لا يثير عملها الثانى أى تعليق بينما يقابل عملها الأول بعدم الرضا والتأنيب.

أما بالنسبة للأطفال الكبار فيخامرنا الشك فى النتيجة التى وصلنا إليها. فثمة احتمال كبير بوجود اهتمام جنسى معين، ولكن كثيراً من حوادث الذنوب الجنسية – كمحاولة الصبيان جذب ملابس البنات فى أثناء اللعب وما شابه ذلك – ليست سوى مظاهرة لنشاط النفوس المتفتحة ونثاراً من حيوية الصبا ومرحه الدافق.

التهيج المبكر

ومادامت الناحية الجنسية موجودة عند الجميع حتى عند الأطفال منذ مولدهم، ولو بقيت فى حالة الكمون حتى سن البلوغ، فمن المهم أن نتفادى الإتيان بأى عمل قد يستثيرها قبل أوانها. وثمة آباء لا يرون إبعاد الطفل عن الحجرة عندما يخلعون ملابسهم، ولكنهم يتمادون فى هذا السبيل ويظنون أن واجبهم - يحتم عليهم باعتبارهم من التقدميين المجددين (أو المتفرنجين) - أن يوفروا الفرص للطفل كى يراهم عرايا. ولكن منظر جسم البالغ متى تكررت رؤية الطفل له عن قرب قد تولد بدورها اهتماماً زائداً بخصائصه. نحن لا نرغب أن نخفى عن الطفل أن لوالده قضيباً أو أن لأمه ثديين، ولكن لا يصح أبداً أن نجعل هذه الأعضاء بحيث تصبح مركزاً لاهتمام لا داعى له. وخير ما ننصح به الوالدين اتباع الحكمة التى تقول بأن «خير الأمور الوسط».

وقد تكون الأحوال أسوأ من ذلك كثيراً. ذلك أنه يوجد فى الأحياء الفقيرة من المساكن ما لا ينبغى لأى مجتمع يحترم نفسه أن يرضى عنها لحظة. وفى هذه المساكن تنشأ الكثرة من أبناء الشعب حيث تكتظ بهم اكتظاظاً يستحيل معه توفير ناحية خاصة لكل فرد من أفراد المنزل، مما يرغم المراهقين والمراهقات على الاشتراك معاً فى حجرات النوم بل والنوم فى فراش واحد فى كثير من الأحيان. وقد تسوء الظروف اكثر من ذلك فتحتم على الأطفال أن يناموا مع والديهم فى حجرة واحدة. غير أننا نجد كثيراً من الأزواج لا يكترثون لوجود أطفالهم حتى ولو لم تكن ظروف السكن سيئة على النحو الذى أشرنا إليه فيتطارحون الهوى مع زوجاتهم على مرأى ومسمع من أطفالهم، ظناً منهم بأن الطفل «صغير جداً لدرجة أنه لا يفهم ما يدور حوله» وربما كان هذا القول على شىء من الصحة. ولكن ما لا يمكن الطفل أن يدركه إدراكاً واضحاً فى صغره قد يترك فى نفسه رغم ذلك أثراً عميقاً، وقد أصاب الضرر كثيراً من الأطفال من الناحية الانفعالية نتيجة لملاحظة العلاقات الخاصة بين والديهم، إذ قد يؤدى ذلك إلى تهيجهم الزائد من الناحية الجنسية أو قد يشعرهم بأن العلاقة الجنسية أمر يقوم على العنف والقسوة. وفى كلتا الحالتين يلحقهم ضرر لاشك فيه. وإذا كنا ننادى بالتزام الجلاء والصراحة فليس معنى ذلك أن نهمل ضرورة التستر واللياقة.

أسئلة الأطفال

ومن أكثر خصائص الطفولة مدعاة للبهجة والسرور ميل دائم للاستطلاع وتعطش للسؤال لا تروى غلته الإجابة العابرة، حتى لينفد صبر البالغين ويقصر جهدهم عن إشباعه. فلا يكاد يستوقف نظر الطفل أمر من الأمور حتى تترى الأسئلة تأخذ بعضها برقاب بعض دون توقف أو انقطاع وكأن كل إجابة تفتح السبيل لفيض جديد من الأسئلة. ومن الطبيعى أن تدور بعض

هذه الأسئلة حول مسائل الميلاد والتناسل والجنس مادامت هذه المسائل من الجوانب المهمة للحياة. والأب الذى يرحب بتزويد طفله بالمعلومات عن مركز الكون وعن الشمس مثلاً، والذى يشرح عن طيب خاطر كيف يسير العمل فى المصانع المختلفة وكيف تختلف الحيوانات بعضها عن بعض يحرج ذات يوم عند ما يسأل الطفل نفسه، من أين أتى وهل هناك فروق بين الأولاد والبنات؟ ولسوف تذهب الظنون بالطفل الصغير كل مذهب إذا أجابه والده عن أسئلته الأولى بسرور وإخلاص بينما يحاول فى الثانية أن يتهرب أو يخادع! ومادامت هذه الأمور قد أقلقت أباه وأمه قلقاً بدا على محياهما فسوف يظن فيها شيئاً شاذاً خافياً. فإذا وقف الطفل ذات يوم على ما كان فى إجابة والديه من مجافاة للحقيقة فإن ثقته بوالديه لابد أن تتزعزع.

وكانت هناك إجابة تقليدية شائعة على كل شفة ولسان. فإذا ما سأل الطفل والديه من أين أتى، أجابوه فى لهجة اليقين بأنه هو وأخوته لم يولدوا وإنما عثروا عليهم فى الحديقة تحت شجرة التوت أو تحت سلم المنزل أو عند باب المسجد أو الكنيسة. غير أن هذه الإجابة التقليدية قد أخذت تتغير فى السنوات الأخيرة، وأخذ موقف الوالدين من مثل هذه الأسئلة يتجه اتجاهاً يحبذ توخى الصدق فى الإجابة حتى أننا لم نعد بحاجة إلى الدفاع عن هذا الاتجاه الجديد بقدر حاجتنا إلى بحث خير الوسائل لتحقيقه.

وثمة مبادئ أساسية ينبغى أن نهتدى بهديها فى تحقيق تلك الغاية، أولها أن الطفل لا يعتبر أى سؤال يسأل قبيحاً ممجوجاً، فلا ينبغى أن يقابل أى سؤال من أسئلته بكيفية يفهم منها أنه كان أولى به ألا يسأله. والمبدأ الثانى يحتم مراعاة سن الطفل عند الإجابة، فليس معنى تجنب الخداع فى الإجابة أن نزجى الحقيقة إلى الطفل فى جرعات قوية، وإنما ينبغى أن توزع بحكمة فى جرعات تتناسب مع درجة ميله للاستطلاع ومستوى معلوماته وإدراكه وكيفية استجابته من الناحية الانفعالية. والمبدأ الثالث أن نسوق الإجابة عن موضوع ولادة الطفل فى لهجة طبيعية غير متكلفة، لأن هذا الأمر لا يتطلب منا لهجة خاصة أو نبرات معينة أكثر مما تتطلبه إجابتنا عن سؤال له فى أى موضوع آخر كالقطة أو الترام أو الفواكه مثلاً. ولنعلم بأن الطفل سوف يتقبلها على هذا النحو. والمبدأ الرابع يحتم على الوالدين أن يفكروا مقدماً فى الإجابة عن أسئلة الأطفال المحتملة حتى لا يفاجئهم الموقف وهم على غير استعداد بسبب نشأتهم الخاصة. وسوف يجدون عنها الشىء الكثير فى الإرشادات التى سوف نوردها فى موضع آخر.

المولود الجديد

وغالباً ما يجدّ مثل هذا الموقف عندما تنتظر الأسرة مولوداً جديداً يزيد من عدد أفرادها. فماذا عسانا نفعل مع صغيرنا خالد وشقيقته سارة وهما المخلوقان الصغيران سريعًا الملاحظة؟ فمن المحتمل جداً أن يلاحظا والدتهما وهى تزيد فى الضخامة يوماً بعد يوم، وأن يتحرقا

شوقاً إلى استكناه السبب، ومن المؤكد أنهما سوف يعلقان على حالتها هذه. وماذا يحدث عندما يحل الوليد الجديد ويشغل من اهتمام والديه المركز الرئيسى الذى كان يشغله أخ له من قبل؟ حدث ولا حرج عما سوف ننتظره من إخوته من العبوس والصياح والعويل.

ليس من المنتظر أن يرحب الطفل الأخير بفقد المركز الرئيسى الذى كان يشغله من نفس والديه، ولكنا إذا مهدنا له التمهيد الصحيح انقلبت الآية وأصبح الموقف أكثر احتمالاً. ولاشك فى أن إعداد الأطفال للحدث المتوقع الإعداد الصحيح بحيث يفقد صفقة المفاجأة يجعلهم يرحبون بالضيف المنتظر أخاً كان أو أختاً. ويمكن اعتبار طريقة إعدادهم لذلك وسيلة ناجحة من وسائل التربية الجنسية.

وكأنى بك تتساءل عن طريقة هذا الإعداد ودور الوالدين فى استثارة الميل إلى الاستطلاع فى نفس ولديهما، فأقول لك بأن الوالدين لن يتكلفا كثيراً من الجهد فى سبيل هذه الاستشارة لأن الطفل الصغير لايكاد يعلم أن الوليد ينتظر وصوله بعد بضعة أشهر حتى يتدفق فيض أسئلته، وإذا أجاب أحد الوالدين عنها بأمانة وحكمة، وذلك بأن أمده بالتفصيلات المناسبة التى تكفيه دون أن ترهق عقله يكون قد أدى لطفله خدمة جليلة. وإذا بنا نتبين أن عقل الطفل كان ينطوى على أفكار مضحكة وإن كانت منطقية فى ظاهرها، كما حدث فى حالة الطفل الصغير الذى ما كاد يسمع من أمه أن البنات الصغيرات تنشأن وتكبرن فى بطون أمهاتهن حتى علق على الفور قائلاً: «حسناً، لقد فهمت. وأعتقد أن الأولاد الصغار ينمون فى بطون آبائهم، أليس كذلك؟» وثمة مثل آخر كانت بطلته صغرى كريمات عالم تربوى يحتل مكاناً مرموقاً وكانت تحب الخيل. ففى ذات يوم عادت من نزهتها وعلمت بأن أمها تنتظر أن تلد مولوداً جديداً، فسألتها قائلة: «لست أدرى يا عزيزتى. فلن نعرف أمره حتى يصل إلينا». فعادت الطفلة تلح فى السؤال والدهشة تغمرها قائلة: «ألا تعرفين يا أماه!؟ ربما كان حصاناً صغيراً، أليس كذلك؟» ثم أطرقت قليلاً وأردفت قائلة «ألا تظنين يا أماه أننا سوف نغمره بحبنا إذا كان حصاناً صغيراً؟ وليس أبلغ من هذه الإجابة الطريفة دليلاً على ضرورة مراعاة الأمانة فى الإجابة. ويستطيع كل فرد فى الأسرة أن يعد شيئاً ولو صغيراً للمولود الجديد متى علم بقرب وصوله، فتستطيع الأخت الكبيرة مثلاً أن تحيك له ثوباً أو تغزل صديرياً. بينما يمكن الصغار أن يعاونوا والدتهم فى بعض الأعمال الإضافية التى تتطلبها عملية الحياكة وغيرها. وعلى العموم ينبغى على الجميع أن يظهروا تقديراً خاصاً للأم، كما ينبغى على الكبار أن يشجعوا كل ما يشعر الصغار بأن الطفل المنتظر هو (ولدينا) وليس وليد الأم فقط، وأن الوليد سوف يأتى كصديق جديد لهم وليس كمغتصب بغيض. أما إذا كان الطفل وحيداً فقد يتطلع بشوق إلى وصول الوليد الجديد حتى يكون له خير رفيق شاركه ألعابه، ولذا فمن

المستحسن أن يتدبر الوالدان الأمر بحيث لا يعانى الطفل مرارة الخيبة إذا ما انتظر كثيراً ثم يتبين أخيراً مدى عجز الوليد الجديد عن مجاراته فى نشاطه وألعابه.

وينبغى علينا أن نغمر الوليد بالحنان والرعاية بكيفية لا تدفع الأطفال الآخرين إلى الغيرة منه والحفيظة عليه، والحق أن الحكمة تدعونا إلى توجيه اهتمام خاص إلى الطفل السابق برهة من الزمن حتى ولو أدى ذلك إلى أن نخصه بنصيب أكبر من نصيبه العادى، وألا نكثر من احتضان الوليد الجديد أمامه فى وقت قد لا يكون فيه محتاجاً إلى صدر أمه.

وثمة شواهد عدة تدل على الشعور الطيب الذى يستجيب به الأطفال عادة لمثل هذا الإعداد. وقد أوردت إحدى الأمهات وصفاً قيمًا ممتعاً لخبراتها فى هذه الناحية نقتبس منه النبذة التالية: «عندما كان ابنى الثالث على وشك الخروج إلى عالم الحياة كان ولدى حامد فى سن الرابعة وابنتى ثريا فى سن السادسة. وكان علينا أن نعدهما لاستقبال المولود الجديد لكى نتفادى شعورهما بالغيرة منه والحفيظة عليه. ولم نكن قد واجهنا مثل هذه المشكلة من قبل فلم تكن الفترة بين ميلاد حامد وأخته ثريا من الطول بحيث تبرز لنا مشكلة من هذا النوع، ولذا أخذت مع زوجى نقدح زناد الفكر حتى انتهينا إلى خطة عهد إلى زوجى بتنفيذها.

أخبرت الطفلين أننا – أنا ووالدهما – نفكر فى تنمية طفل آخر فى أثناء ذلك العام، وقد سرًا بهذه الفكرة سروراً لا مزيد عليه، ولكنهما بدآ يستفسران عما أقصد بكلمة (تنمية الطفل). فقلت «معنى ذلك أنكما إذا أردتما الحصول على طفل فيجب أن تنمياه» فسألانى فى دهشة «ننميه؟! ماذا تعنين بذلك»؟ فقلت لهما «حسناً، أنتما تنموان، أليس كذلك؟ فأنتما فى هذا العام أكبر مما كنتما فى العام الماضى، وأكبر بكثير عما كنتما فى الوقت الذى أخذت لكما فيه هذه الصورة – ثم عرضت عليهما صورة أخذت لهما عقب ميلاد ثريا – والوليد ينمو بهذه الطريقة، إنه يبدأ من شىء متناه فى الصغر إلى درجة لا يمكن معها رؤيته، وعندما يصبح فى الحجم المناسب فإنه يولد». وما كدت أفرغ من كلامى حتى انطلق لسانها بالسؤال الذى لا مفر منه «وأين هو الوليد الآن؟» وعندما أخبرتها بالحقيقة، ظنا أننى أمزح معهما أو أموّه عليهما، بل وأنى وفقت فى مزاحى وتمويهى إلى درجة كبيرة. فعدت أؤكد لهما «أن ما قلته هو الحق! فلدى فى جسمى نوع من المهد أو العش يوجد الوليد فى داخله الآن ينعم بالأمن والدفء. ولعلكما تعجبان إذا قلت لكما أننى نميتكما فى هذا العش، ولكنكما لا تستطيعان تذكر ذلك». وعندما أخذت الدهشة تنقشع تدريجا أردفت قائلة «وفى مبدأ الأمر يكون الوليد من الدقة بحيث لا يسبب ما يلفت النظر، ثم يكبر شيئاً فشيئاً فيكبر معه حجم أمه. وسوف تلاحظان أنى أزيد فى الضخامة كلما دنا موعد الوضع، لأن جلدى مطاط فهو يتسع عندما يكون الوليد فى داخله، ثم يعود إلى حجمه الطبيعى بعد الولادة وخروج الوليد».

وزيادة على ذلك فقد فسرت لهما لماذا كان يحجم بعض الناس عن إخبار أولادهم بالحقيقة وكيف أنهم كانوا يخشون ألا يحفظ أطفالهم ما يقال لهم من أسرار. ثم أضفت قائلة، «ومن ثم يموهون عليهم وخاصة عن المكان الذى أتى منه الطفل فمنهم من يذكر أن بجعة أتت به ووضعته تحت شجرة التوت حتى وجدوه فى الحديقة أو تحت سلم المنزل أو عند باب الجامع». وعند هذا الحد ظننت أنى قد وضعت الأمور فى نصابها ولكنى لاحظت فيما بعد أن حامداً تأكله الغيرة لأن أخته ثريا تفاخرت عليه قائلة بأنها سوف تنمى أطفالاً عندما تكبر، أما هو فلن يستطيع، لأن الأولاد ليس لديهم أعشاش فى بطونهم وبذلك لا يستطيعون تنمية الأطفال. فسألنى وهو يتميز من الغيظ عن السبب فى حرمانه من دوره فى تنمية الأطفال. عند ذلك أحسست بأنى أواجه أسئلة قد أعجز عن الإجابة عنها بشكل مناسب.

ولما كنت قد عولت على أن أجيب عن أسئلة أطفالى بأمانة وإخلاص فقد بذلت غاية ما فى وسعى وطمأنته قائلة «لا تقلق يا حامد، فإن الأم لا تستطيع أن تنمى طفلاً واحداً ما لم يشاركها الأب فى ذلك. فعندما يشب الأولاد عن الطوق ويصبحون رجالاً ويتزوجون فإنهم حينئذ ينمون جزءاً من البذور التى تبدأ منها خلقة الأطفال.. وبمعنى آخر فإن الأم تنمى النصف بينما ينمى الأب النصف الآخر. وعندما يعطى الأب النصف الذى نماه للأم فإن النصفين يتحدان ويكونان تلك البذرة الصغيرة التى ينشأ منها الوليد..».

فقال حامد على الفور. «حسناً، لقد فهمت» ولكنى لاحظت تزاحم الأسئلة الجديدة على طرف لسانه، فبادرت قائلة «نعم، وعندما تكبر فسوف يخبرك والدك عن أمر هذه البذور وكيف تزرعها». ولكم شعرت بالارتياح عندما وجدت أن هذه الاجابة كفته وكفتنى السؤال والجواب. لأنى كنت أعلم أنه فى سن لا تسمح لهم بفهم هذه المسألة على حقيقتها كما أننى لم أكن ندا للإجابة عن أية أسئلة بعد ذلك.

ثم كرت الأشهر وتحول شكلى، فبدأ اهتمام حامد وثريا بالوليد القادم يزيد تدريجاً. وقد تبينت أنه ليس ثمة داع إلى الندم على ما أخبرتهم به، وأننى كنت على حق فى تصرفى. لقد كان ما سمعوه مدعاة لارتياحهم وعجبهم. وقد كان يسعدهم أن يعملا على راحتى. لقد كانا يسألانى «هل نستطيع أن نتحسس الطفل؟» وإذا بدأت فى عمل مجهد نوعاً ما حذرانى قائلين «أماه، احترسى حتى لا تؤذى الوليد». وقد دفعهما إيثارهما له إلى مطالبتى بأن آكل نصيبهما من الحلوى المفضلة لأجل الوليد. ولم يعد الأمر سراً للأسرة فقط وإنما أصبح تعاوناً مشتركاً من جانب الأسرة كلها فى سبيل راحة الأم والوليد المنتظر. وقد تعودت فى أيام الحمل الأخيرة أن أستيقظ فى الصباح لأرى طفلين صغيرين فى ثياب النوم يتطلعان فى لهفة واشتياق إلى المهد الذى كان معدا قريباً من فراشى وأسمع أحدهما وهو يهمس قائلاً «لم يأت

بعد يا ثريا، أو، لم يأت بعد يا حامد» وإن أنس لا أنسى تلك الصيحة التى انفرجت عنها شفتاهما ذات صباح تنم عما يحسان به من غبطة وسعادة عندما وجدا الوليد فى مهده.

فى ذلك اليوم عجلت ثريا بتناول طعام الإفطار وأسرعت تزف البشرى إلى عمتها وكانت تسكن قريباً من دارنا وقالت لها «لقد جاءنا وليد جديد». فسألتها عمتها قائلة «أحقاً ذلك؟ ومن أين جئتم به؟» فتبسمت ثريا قائلة «لقد وجدناه تحت شجرة التوت» ثم قهقهت ضاحكة، وعادت مسرعة إلى حجرتى وخاطبتنى وهى تلهث «أماه، لقد مازحت عمتى وأخبرتها عن الوليد الذى وجدناه تحت شجرة التوت!».

ما قبل سن البلوغ

والأطفال لا يسألون الأسئلة المتعلقة بالجنس فى طفولتهم فقط، وإنما يسأل الصبى والده عن دور الأب فى الإنسال – إذا لم يكن من قبل قد فقد الثقة فى والديه من تلك الناحية – وتعتبر هذه الأسئلة فى نظر كثير من الآباء حرجاً ما بعده حرج. ولكن الأمر يحتم علينا ألا نعتبرها محرجة، ولننظر إلى الأمر من وجهة نظر الطفل. فالسؤال بالنسبة للطفل سؤال طبيعى تماماً وهو على حق فى توجيهه. ولسوف تكفيه الإجابة متى كانت صادقة لم يشبُها تبرم الوالد أو ارتباكه، وما لم يلجأ فيها الأب إلى الخداع. ولهذا ليس من الحكمة فى شىء أن نصدم الطفل بقولنا «دع هذا السؤال حتى تكبر». والملاحظ أنه كلما كان الطفل أكبر سناً كلما تبرم الأب من تلقى مثل هذا السؤال.

غير أننا نقرر أن الوقت المناسب للإدلاء بالمعلومات فى تلك الناحية هو عندما ينشدها الطفل، وليس عندما يظن الوالد أن الطفل قد وصل إلى السن المناسبة للإفضاء إليه بتلك الحقائق، فإذا قررت أن الوقت المناسب للإفضاء لأبنك بتلك الحقائق هو عندما يتخطى سناً معينة تكون قد بدأت بداية مصطنعة وعالجت المشكلة علاجاً خاطئاً. إن التصرف السليم يقوم على أساس توفير جو من الثقة فى المنزل، عند ذلك يتلهف الطفل على المعرفة، وإذا لم يكفيه والده فيمكننا أن نتأكد من أن خلاّن السوء ورفاق الشارع سوف يتكفلون بذلك.

الحيض

ورغم ما سبق فهناك أمور ينبغى على أحد الوالدين أن يكون فيها البادئ بالحديث، لأنه كبالغ يعرف عادة ما سوف يحدث فى المستقبل من تطور بينما لا يعرف الطفل شيئاً من ذلك. فالبنت يأتيها الحيض حوالى سن الثانية عشرة. ولذا ينبغى على الأم أن توضح لها معنى الحيض وتشرح لها أهميته إذا ما شارفت عامها الحادى عشر تقريباً، وفى ذلك الوقت تكون قد أدركت فكرة بسيطة عن الحقائق الأساسية للنسل. ولا بأس من أن يتضمن الشرح

فكرة عامة عن كيفية استخدام المناشف، وعلى أية حال ينبغى أن تطلب منها أمها أن تحيطها علماً عند حدوث أول علامة من ذلك حتى تستطيع أن تعطيها الإرشادات المناسبة لمثل هذه الحالات. ومن المهم أن يتم كل ذلك بكيفية لا تثير الشعور بالنفور. والواقع أننا لا يمكن أن نعتبر الحيض أمراً مرغوباً فيه من الناحية الجمالية غير أن فى استطاعتنا أن نعمل على تفادى ما كان يثيره هذا الحادث قديماً من شعور بالكراهية وبالفزع فى بعض الأحيان، ذلك الشعور بالتحريم الذى ورثناه من الحياة البدائية. ولازال يوجد لسوء الحظ بعض الناس الذين يشعرون فى هذه الناحية بمثل ما كان يشعر به أسلافنا من سكان الغابات والأحراش. ومما يدل على ذلك تعليق إحدى التلميذات من مدينة لندن بعد أن تلقت مع فصلها درساً فى التناسل قالت «إذا لم يخطر البنات مقدماً عن العادة الشهرية أو أخبرتهن أمهاتهن بأن تلك العادة شىء مكروه فقد يفزعن منها ويركبهن الرعب». والواقع أن الحيض ليس مرضاً أو شيئاً قذراً. ولا يصح أن نشجع ما يدعو البنات إلى اعتباره كذلك. ويرى معظم الأطباء أن نواحى النشاط العادية – كالمشى والعمل المدرسى والاستحمام – يمكن أن تسير سيرها العادى أثناء فترة الحيض فى معظم الحالات. ويحدث فى بعض الأحيان أن يتسبب عنها ألم فينبغى إذا استمرت هذه الحالة أن يستشار الطبيب. كما أن فترات الحيض تكون فى كثير من الحالات غير منتظمة فى مبدئها؛ فينبغى أن يفهم البنات أن هذا الأمر محتمل الوقوع ولا ينبغى لهن أن يقلقن من أجله، ومن النادر ألا يكون الحيض فى بعض الأحيان مبعثاً للضيق به والتأفف منه فينبغى أن تشجع البنات على فهم قيمته ومغزاه بالنسبة لإنجاب الذرية. ولاشك فى أن المرء يقبل راغباً على تحمل ما يضيق به عادة إذا كان فيه ثمة ما يعوضه ويبرر حدوثه.

كما ينبغى أن نذكر للبنين فكرة عن مغزى الحيض حتى لا يبنوا فكرتهم عن فترات العادة الشهرية عند إخواتهم على أساس من الجهل أو الحدس والتخمين. فالأولاد – وكثير من الرجال – ينظرون إلى الحيض لا على أنه شىء غامض فقط وإنما على أنه شىء ومرذول أيضاً. فإذا فهم الأولاد الموقف على حقيقته فإنهم سوف يقدرون السر فى إحجام البنات عن القيام ببعض نواحى النشاط فى خلال هذه الفترة بدل أن يضايقوهن بمطالبتهن بإبداء الأسباب لهذا الإحجام.

بلوغ الحلم

مما ينبغى علينا أن نعد الصبيان جميعاً للتغيرات التى سوف تنتابهم فى خلال فترة المراهقة. فمنذ الثانية عشرة تقريباً قد يحدث أن يخرج المنى منهم ليلاً فى أثناء النوم، وهذا ما يسمى (بالحلم). ولما كان هذا القذف المنوى يصحب عادة بأحلام شهوانية فإنها تسبب للمراهقين قلقاً عظيمًا، ولذا ينبغى على الآباء أن يخبروا أبناءهم بما ينتظرهم ويشرحوا لهم

كيف أن هذه الحوادث طبيعية وعديمة الضرر. وكما يحتاج البنات إلى الإشارة بأن عدم انتظام دورات الطمث لا يصح أن تكون سبباً للخوف فكذلك ينبغى أن نذكر للبنين بأن تأخر بلوغ الحلم لا يعنى ضعفاً جنسياً. ومن المفيد أيضاً أن يشار بهذا الأمر للبنات حتى يكن على علم تام بما يحدث لإخوتهن. وزيادة على ذلك فمعظم البنات سيصبحن أمهات فى يوم من الأيام وينجبن أولاداً ومن الخير لهن كأمهات أن يعرفن هذا الأمر.

العادة السرية

وثمة مشكلة أخرى من مشاكل المراهقة وعلى الأخص بالنسبة للمراهقين من البنين، تلك هى مشكلة العادة السرية. وسوف يعالج هذا الأمر بإسهاب فى موضع آخر. ولكن من المفيد الآن أن نشير إلى أنه ينبغى على الوالدين أن يوقفوا أبناءهم على جلية الأمر. ولكن الأمر يختلف فى حالة البنات عنه فى حالة البنين إذ يبدو أن العادة السرية أمر يكاد يكون نادراً بين المراهقات بصرف النظر عن مدى شيوعه بين البالغات والسيدات اللائى باشرن العلاقات الجنسية. إلا أن الحكمة تتطلب من الأم أن تتحدث مع ابنتها فى هذا الأمر إذا كان هناك شك فى ولوعها بهذه العادة. ويلاحظ أننا استعملنا كلمة «تتحدث» لا كلمة «تعظ» فليس هذا مجال لتصنع الورع والتقوى. والواقع أن الحديث عن الأمور الجنسية بين الوالد ووالده ينبغى أن يكون بعيداً عن أية شكليات، فلا يصح أن نصطنع التأثير بالكلام أو بالإشارة بكيفية توحى خطأ إلى الطفل بأن الأمور الجنسية منعزلة عن بقية الحياة وإنما يجب أن يكون مجرى الحديث فيها طبيعياً تماماً.

غراميات المراهقين

وفى مقدور الوالدين أن يبذلا جهداً منتجاً نافعاً ليعاونا الأطفال على اجتياز فترة المراهقة بسلام؛ وذلك بأن يقدرا خصائص هذه الفترة حق قدرها ويفسحوا المجال المناسب لظهورها. وما من شك فى أن الشبان لا يمكن أن يطلق لهم العنان على حساب سعادة بقية أفراد المنزل وراحتهم، ولكنهم يحتاجون فى فترة المراهقة إلى مزيد من الحرية.. إن زيادة الحساسية عندهم ونمو الشعور بالذات كلها أمور تحتم علينا أن نفسح المجال الذى يحقق لهم الحياة الاستقلالية، وعلى وجه الخصوص الاستقلال فى العلاقات الشخصية. ولعل من نافلة القول أن نذكر أنه ينبغى علينا أن نشجع المراهقين والمراهقات على أن يدعوا أصدقائهم أو صديقاتهن إلى منازلهم فى المناسبات، ولكن هذا لا يجب أن يقوم مبرراً لتدخل الوالدين. فيحدث أحياناً أن تغمر الوالد السعادة عندما يدعو ابنه خالد صديقه عصام لتناول الشاى فى عطلة الأسبوع، ولكنه يبدى اعتراضات شتى إذا دعا فى الأسبوع التالى صديقاً آخر غيره ثم صديقاً ثالثاً وأهمل أولئك وهكذا، وإذا كان هذا هو موقف الآباء إزاء علاقة أبنائهم بأصدقاء، فأسوأ من هذا بكثير

ما يحدث لو أن أبناءهم اتخذوا لهم صديقات. فكأن الواحد منهم يطلب من ابنه المراهق مستوى من الصداقة يليق بالبالغين وذلك بوحى رغبته الطبيعية فى ألا يكون ابنه كثير الاختلاط. وهكذا لا يمضى وقت طويل حتى يمتنع خالد عن دعوة أن صديق من أصدقائه إلى المنزل احتجاجاً على تدخل والده. إن فترة المراهقة فترة استكشاف، كما أن التذبذب أمر طبيعى بالنسبة للمودة والحب فى تلك المرحلة. وسوف يغدو المراهقين بالتدريج أهدى سبيلاً فى يوم من الأيام. وكلما نموا من الناحيتين الانفعالية والاجتماعية كلما ارتبطوا بنوع من العلاقات أكثر استقراراً ونضجاً.

وكثيراً ما يندفع المراهقون فيترددون على دور اللهو ويتأخرون فى عودتهم ليلاص إلى المنزل مما يؤدى بهم إلى مشاكل كثيرة مع أهلهم. ذلك لأن الآباء بطبيعة الحال يرغبون فى مراقبة سلوك أبنائهم وفى كبح جماحهم إذا تطلب الأمر ذلك، غيرّ أن فى وسع الآباء أن يسمحوا لأبنائهم بقسط مناسب من الحرية دون أن يخشوا مغبة ذلك. فالمراهق اليوم هو بالغ الغد وليس فى وسع المراهقين أن يتصرفوا تصرف البالغين ويتحملوا مسئولياتهم إلا إذا سمحنا لهم بمزاولتها والتمرن على تحمل إعبائها. قد يكون هناك فى بعض الحيان ما يبرر الخوف من الوقوع فى الانحلال الخلقى الجنسى، غير أن الشك يخامرنا فى جدوى القيود والتحريمات التى يفرضها الآباء فى مثل هذه الأحوال. ماذا عسى الوالد أن يفعل إذن؟ عليه أن يقوم بسرد الأخطار التى يتعرض لها المخطئ من ناحية النسل غير الشرعى وعدوى الأمراض السرية. والموقف الذى قد يتعرض له المحبان إذا تدرجا فى الهوى ثم يفيقان من نشوتهما ليجدا أنهما قد انزلقا إلى حد أبعد مما قصدا أو ظنا أن من الحكمة الوصول إليه. قد يرغب البنون والبنات الذين تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والتاسعة عشرة فى أن يناقشوا والديهم فى هذه الأمور، ولكن قد يكون ثمة حاجز انفعالى يحول بين المراهقين وبين الإفضاء لوالديهم بما يجول فى نفوسهم، وجدير بالوالدين ألا يفرضا مودتهما على المراهقين من أبنائهم. أما إذا رغب الوالدان فى كسب ثقة الأبناء فعليهم أن يمنحوهم تلك الثقة حتى ولو نتج عن ذلك بعض الخطر، ولا غرو فالزهرة عندما تتفتح من أكمامها بعد أن كانت فى حماية البرعم فإنها تفقد قدرا كبيرا من الحماية التى كانت تتمتع بها وتصبح معرضة لجميع أخطار الجو، إن الزهرة أعلى قدرا وأزهى منظراً من البرعم، وإذا لم يتفتح البرعم فليس ثمة ما يبعث على الأمل فى ثمر ناضج.

على أهبة الزواج

وتسير الأمور على منوال آخر عندما تعلن خطبة الابن أو البنت ويصبح الزواج قاب قوسين أو أدنى. فإذا كانت التربية الأولى كما يجب أن تكون، فلن يكون هناك ما نخشاه من حدوث المأساة التى كثيرا ما تحل بالزواج إذا كان أحد طرفيه أو كلاهما يجهل أو يكاد ما تتضمنه

تلك العلاقة، وليس هذا بالأمر النادر حتى فى أيامنا هذه. ولكن الزواج يعنى أكثر من مجرد عملية الجماع إنه يعنى أسلوباً بأكمله من الحياة يجب الإلمام به والوقوف على أسراره. ولا تكفى الكتب على أى وجه من الوجوه للإلمام بهذا الأسلوب ولكن يستطيع الوالدان أن يعاوناً فى هذه الناحية بإرشاد الأبناء إلى ما تنفع قراءته، إذ أن هناك الغث والثمين من الكتب وسوف يؤدى اطلاع العروسين على الكتب القيمة إلى فائدة لاشك فيها. وإذا كانت العلاقة الوجدانية بين الآباء والأبناء بحيث تؤدى إلى تحرز كل منهما من مناقشة التفاصيل الدقيقة الخاصة بالحياة الزوجية فليس أقل من أن يشير الوالدان على العروسين أن يتحادثا – إما معاً وإما على انفراد – مع بعض من يمكن أن يلتمس عندهم النصح والإرشاد. أما إذا كان فى استطاعة الآباء أن يعاونا الأبناء بالنصح فمن الخير ألا يكثرًا منه وألا يسرفًا فيه.

فردية الأطفال

من الواضح أن طبيعة البشر تتجافى مع اتباع طرق محدودة معينة فى معالجة مثل هذه الأمور. فأفراد البشر لا يخرجون على نمط واحد من مصانع تنتج بالجملة، وإنما تشبع الفروق بين أفرادهم أكثر مما تشبع بين أفراد أى جنس آخر من المخلوقات، وهذا الاختلاف يشمل الخصائص الجسمانية كما يشمل التكوين الفكرى والانفعالى. ولهذا كان كل طفل نسيج وحده ويحتاج إلى عناية فردية خاصة به. فمثلاً قد تتطلب حالة عاصم أن نكشف له عما نكنه من الحب والحنان بينما قد تقنع أخته مريم بالقليل من ذلك، كما أن مستوى السلوك الذى يكون معقولاً بالنسبة لطفل ما قد يكن قسوة شديدة بالنسبة لآخر. كما أن النصح الذى نبديه لفرد قد يعتبره الآخر قيداً لا يطيقه، لذا كان من الضرورى عند تقديرنا للأمور أن ننظر إليها من وجهة نظر كل طفل على حدة وأن نقيسها على قدر طاقته كما تبدو هذه الطاقة من إجاباته ونزوعه إلى الاستطلاع ومساهمته فى حل المشاكل أو عزوفه عن ذلك. ومن الضرورى أن يتم ذلك كله دون أن يشعر بقية الأطفال بأى حيف أو محاباة. وفى سبيل ذلك قد يعتمد الآباء على حبهم لأولادهم، غير أن الحب الأبوى لا يكفى وحده إذ يتطلب الأمر أيضًا معرفة وعلماً وذكاء.

جو المنزل

قد يفرغ الآباء جهدهم فى الإجابة عن أسئلة أطفالهم وفى سبيل مدهم بالمعلومات المفصلة وإرشادهم من الناحية الجنسية – غير أن أثمن خدمة يؤدونها لفلذات أكبادهم هى تهيئة المنزل الصالح لهم. والصلاحية هنا لا تنصب على الإطلاق من أن يلقن الوالدان طفلهما فكرة عن سمو الجنس بينما يفصح سلوكهما عما يعانياه من الحرج والضيق بسبب الناحية الجنسية. ولن يكون ثمة قيمة لتأكيدهم أن الزواج مجلبة للسعادة إذا شب الطفل فى بيت يعكر صفوه

شقاق دائم بين الوالدين. ليس معنى ذلك أننا ننكر على اثنين من بنى البشر حق الاختلاف فى بعض وجهات النظر إلى الأمور، وخاصة إذا سكن أحدهما إلى الآخر أحسن سنوات العمر، ولكننا نقول بأن الخلاف بينهما إذا تفاقم بحيث يؤدى إلى ضروب العراك المختلفة كان فى هذا تشويهاً لصورة الحياة الزوجية يجعلها أداة فاشلة للتربية الجنسية؛ ذلك لأن الأطفال يتأثرون بالعمل أكثر مما يتأثرون بالقول، ولذا فإن المشاحنات والنقار بين الزوجين تمحو من نفوس الأبناء أثر العبارات الرنانة التى سمعوها عما ينبغى أن يكون من حب متبادل بين المرء وزوجه. وقولنا هذا لا ينصب على كبار الأطفال فقط وإنما يشمل الحدث الصغير أيضاً، لأن الطفل منذ حداثته يتأثر بالجو الانفعالى الذى يحيط به قبل أن يصبح قادراً على فهم الحديث بوقت طويل. وعلينا أن نعتبر من أحد مبادئ الصحة العقلية الذى يقول «إنما يكمن الخطر فى ثنايا الشقاق». ويتفاقم الخطر إذا لم يحقق الزواج لأحد الزوجين الإشباع الكافى من الناحية الانفعالية، فيعوض ذلك عن طريق الاهتمام الزائد عن الحد بالأطفال. فكم من طفل انحرف نموه الطبيعى بسبب ما تغمره به أمه من الحب الجارف فيستحيل عليه بعد ذلك أن يحقق التحرر الكافى لحياته الزوجية المستقبلة. غير أن مثل ذلك لا يحدث بين البنت وأبيها، لأن المجتمع الحاضر يحتم على الأب أن يقضى أجل وقته خارج المنزل فى أعماله أو هواياته، أما إذا حدث ذلك لسوء الحظ فإنه يؤدى إلى نتائج غير محمودة لأن البنات وخاصة فى فترة المراهقة يملن إلى الارتباط القوى بآبائهن، ثم يصبح هذا الارتباط نموذجاً تحتذيه البنت وتلتمسه فيمن تهفو إليها نفسها إلى غير أبيها من الرجال. لهذا ينبغى أن تكون شخصية الأب من النوع الذى يلهم المثل السامية وخاصة فى أثناء هذا الدور الذى يشيع فيه الخيال وتنبنى فيه المثل العليا.

وقد درجت كثير من الأسر على السماح للبنين دون البنات بحرية مغادرة المنزل فمثلاً يخرج عصام للعب بينما تبقى أخته لطيفه فى المنزل تساهم فى تدبير شئونه. فهل ثمة ما يدعو إلى الدهشة إذا شب كثير من الأولاد وهم يعتقدون أن الأعمال المنزلية من اختصاص المرأة، وإذا انطوت صدور كثير من البنات على شعور بالضغن والفجيعة لأنهن لم يخلقن ذكوراً؟ وإذا قامت الفضائل الجنسية على إعفاء أحد الطرفين من الأعباء بينما يغمر الطرف الآخر شعور بالنقص نتيجة لجنسه لم تكن تلك الفضائل جديرة حتى باسمها. وإذا كان الأمر كذلك فليس ثمة ما يدعو إلى الدهشة إذا ثارت المرأة تطلب المساواة المطلقة بين الجنسين. إن جماع القول فى مسألة الجنس والأساس الراسخ لقدره وأهميته هو أن الرجل ذكر والمرأة أنثى، وهما مختلفان بحكم الطبيعة. وليس فى هذا الاختلاف ما يدعو إلى القلق. غير أن المتاعب تنجم من غير شك إذا اتخذ هذا الاختلاف ذريعة لحيف اجتماعى أو منزلى بالنسبة لأحد الجنسين.

ومما يشير بالخير اتجاه الكثيرين إلى الاعتراف بأن للأب نصيبه من الأعباء المنزلية كالأم، كما أن للابن واجباته وللبنت واجباتها هى الأخرى. فإذا نشأ الأطفال على هذا النسق تلقوا بهذا خير درس عن – الجنس وهو أنه يكفل الزمالة والاحترام كما يكفل الحب. وأن من حق الأب الذى يساهم فى أداء المهام غير المستحبة، كغسيل لفائف الطفل وتنظيفه عقب التبول أو التبرز أن يساهم فى الأعمال الشيقة مثل استحمام الأطفال وملاعبتهم وإعداد الفراش لهم. والأطفال الذين يشبون فى رعاية والدين من هذا الطراز لا يشوبهم الشعور بأنهم يستطيعون أن يستغلوا والدتهم فى التأثير على والدهم أو أن تخامرهم فكره أن أحد الجنسين يكون فى العادة رحيماً متسامحاً بينما يكون الجنس الآخر فظاً عنيداً. وإذا حدث وتكونت مثل هذه الاتجاهات فى نفوس الأطفال نحو والدهم أو والدتهم فحرى بها أن تتحول فى مستقبل أيامهم نحو الآخرين من الرجال والنساء وتؤدى إلى أوخم العواقب. أما الطفل الذى يشب وهو يدرك أن العلاقة الطبيعية بين الأب والأم هى علاقة الحب والحنان والتعاون المتبادل والصبر فإنه يقيم علاقاته الجنسية الخاصة فى المستقبل بشكل مرضٍ طيّب.